كلمة المترجم

** **

لم يتوقع نيقولا مكيافيللي أن كتابه الأمير الذي انتهي من كتابته قبل وفاته بأربعة عشر عاماً سيصبح مرجعاً سياسياً مهما للكثير من قادة العالم عقب الثورة الصناعية. كما أنه لم يخيل إليه أن يصبح الكتاب ذا أهمية في عالم السياسة. فكل ما كان يطمح إليه هو أن يقرأ الأمير هذا الكتاب ويعمل بما جاء به ويستطيع توحيد إيطاليا. لكن الكتاب أيضاً وفي نفس الوقت يعتبر عاراً يلاحق مؤلفه حتى بعد وفاته بعدة قرون.

ورغم محاولات الدفاع العديدة عن الكتاب إلا أنها لم تفقده السمعة السيئة التي حاقت به وبمؤلفه. فقد وجد المؤلف ضالته في أمير حديث تولى ولاية موروثة عن آبائه، فكتب له هذا الكتاب ووضع فيه خلاصة فكره وتجاربه السياسية علها تفيد في تحقيق هدفه المنشود وهو توحيد إيطاليا.

لكن هذا الناصح الأمين لم يخجل من ذكر نصائحه صراحة ودون محاولة لتغطية ما فيها من معاني الخسة والانتهازية وعدم احترام حقوق الآخرين، بل واعتبار أن قتل الأبرياء شيء طبيعي من الممكن فعله من أجل الحفاظ على مُلك مغتصب، وذلك عندما نصح الأمير بأن يُبيد جميع أفراد الأسرة المالكة فيما يسقط بين يديه من ولايات وإلا أصبحوا خطراً عليه، وضرب على ذلك مثلاً بمن قتل كل أعيان وكبار بلده غدراً –ومن بينهم خاله الذي احتضنه ورباه بعد وفاة والديه– بعدما عاد إليها حتى يطمئن إلى أنه لن يبقى حوله سوى رجال جيشه المخلصين الولاء له فقط. كما أن مكيافيللي ينصح الأمير علانية بأن

يجمع كل الصفات الحميدة التي يفتخر بها الرجال ويلتزم بها أمام الناس، بل ويبذل كل ما في وسعه كي يشتهر بها، فيقول الناس عنه : إنه كريم وصادق وشهم وشجاع وحافظ على العهد. لكنه يشدد على أهمية أن يستخدم الأمير عكس كل هذه الصفات عند الحاجة إليها دون أي خجل من ذلك. فالمهم فقط هو ما يسعى إليه الأمير من شهرة طيبة تتحقق سواء التزم بهذه الصفات أم لا.

لذلك فقد ترددت قليلاً قبل الإقدام على ترجمة كتاب "الأمير" لنيقولا مكيافيللي. وذلك لأن اسم مكيافيللي في حد ذاته لا يرتبط بأي معنى طيب في ذهن القارئ العربي العادي، بل إن كثيرا من القراء العرب والمسلمين لا يعرفون عنه سوى أنه صاحب عبارة "**الغاية تبرر الوسيلة**" وهي عبارة وردت في الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب، ومعناها واضح وصريح، أي الوصول إلى ما نريد بأي طريق حتى وإن كان طريقاً غير شريف. فهي عبارة تجرد معنى الانتهازية في أخس صورة.

وقد أثار كتاب مكيافيللي جدلاً كبيراً عندما نشر في أوروبا لأول مرة، فهو يتناول أخلاقيات السياسة وهو شيء لم يسبقه أحد إليه، إلا أن غالب النقاد في تلك الفترة أجمعوا على ما فيه من أخلاقيات شريرة، وقالوا إن الكتاب لا يناسب سوى الطغاة الأشرار من الحكام. وكنتيجة لهذه الشهرة في عالم الشر، فإن كل القراء في أوروبا في القرن السادس عشر، والقرن السابع عشر يعرفون كتاب الأمير وصاحبه مكيافيللي.

وقد أكد المسرح العالمي على تلك المعاني الشريرة الموجودة في أفكار مكيافيللي، وخاصة في كتاب الأمير. ففي المسرح الإنجليزي يقول شكسبير على لسان إحدى شخصياته في مسرحية "زوجات وندسور المرحات" : "ماذا .. هل أنا مخادع .. هل أنا مكيافيللي ؟" كما أن "مارلو" قد استخدم الشخصية

غير الأخلاقية على طريقة مكيافيللي في "يهودي مالطا" (١٥٨٩م) وهناك أمثلة أخرى عديدة.

ولم يقتصر الأمر على المسرح الأوروبي القديم والحديث، بل امتد إلى المسرح العربي الحديث أيضاً، حيث ترددت العبارات التالية في كثير من المسرحيات العربية : "هذه مكيافيلية رخيصة" أو: "هذا هو مبدأ مكيافيللي الرخيص" وغيرها من العبارات التي لا تحمل أي معنى للشهامة ، أو النبل ، أو الصدق ، أو الوفاء.

وعلى الرغم من أن فرنسيس بيكون (وهو معاصر لشكسبير) قد حاول توضيح أن مكيافيللي يتناول الأشخاص كما هم ، وليس كما يجب أن يكونوا، فإن ذلك لم يُجد نفعاً ، ولم يحسّن من سمعة مكيافيللي التي كانت موضع طعن وشبهات حتى أن اسمه قد أصبح مرادفاً للشر الذي لا ينافسه سوى شخصية الشيطان مفستوفاليس في مسرحية فاوست الشهيرة، والتي ترجمت للعديد من اللغات العالمية.

ومما ساعد على تفشي السمعة السيئة للكتاب ولصاحبه أنه قد صدر قرار في عام ١٥٥٩م بإدراج جميع أعمال مكيافيللي في قائمة الكتب الممنوع نشرها، كما أن كثيرا من الجبابرة والطغاة كانوا يحبون قراءة كتابه "الأمير". فيقال : إن "موسيليني" قد اختاره موضوعاً لرسالة الدكتوراه أيام دراسته. وكان "هتلر" يضع هذا الكتاب على مقربة من سريره ، ويقرأ فيه كل ليلة قبل أن ينام. فلا غرابة إذن لو علمنا أن "ماكس ليرنو" قد قال في مقدمته لكتاب "أحاديث" إن "لينين وستالين" قد تتلمذا أيضاً على مكيافيللي.

لكنى ـ وبعد دراسة شاملة للأمر ، وقراءة غالب ما كتب من تحليلات عن هذا الكتاب وبعض ما صدر له من ترجمات للغة الإنجليزية ـ قررت بلا تردد

ترجمة هذا الكتاب لأسباب عديدة. من هذه الأسباب أن الكتاب مليء بالأخلاقيات السياسية السائدة في ذلك العصر، بل والسائدة حتى عصرنا هذا، سواء كانت هذه الأخلاقيات حميدة أم بغيضة. وهذا يوضح لنا كيف تأثر قدامى الساسة والمحدثين منهم بما ورد بهذا الكتاب ، وكيف استفادوا منه في تسيير أمور أعمالهم السياسية وغيرها.

ومن بين تلك الأسباب أيضاً أن هناك مواقف مذكورة بالكتاب ، يمكن تطبيقها على ما يحدث في عالمنا الحالي سواء في الشرق أو الغرب، وذلك رغم أخلاقياتنا العربية السمحة التي تعارض مبدأ مكيافيللي على طول الخط وتقول بأن "الضرورات فقط هي التي تبيح المحظورات" .

وقد وجدت أن الكتاب ، وبشهادة كثير من المؤرخين ، يعتبر أول ما كتب في علم السياسة الحديث ، الذي تفرع ، وتشعب ، وتعدد في عصرنا الحالي وأصبح علوماً سياسية تدرس في جامعات العالم. وقد وضع الكتاب الأسس التي تمكن الحاكم من اختيار قادته ومستشاريه ونوابه، وإن كان أيضاً يوجه الحاكم إلى أهمية البطش بمعارضيه والقضاء عليهم، فهو إذن يحتوى على الصالح والطالح من الأفكار، ولا بأس من ترجمته، لنعرف ما فيه من خير وإن كان قليلاً ونتجنب ما فيه من شر. فترجمته للعربية ستكون مفيدة للكثير من الباحثين والدارسين والطلاب.

والكتاب يشير إلى جزء هام من تاريخ إيطاليا وتاريخ العالم، لكنه لا يذكر تفاصيل بعض المواقع أو الأحداث التاريخية ، والمعارك التي قد تكون مجهولة بالنسبة لقارئ الكتاب، بينما يتحدث عنها مكيافيللي وكأن الجميع يعلمها علم اليقين. فعلى سبيل المثال لا الحصر ، يشير مكيافيللي إلى قصة "سيدنا موسى" مع بني إسرائيل تلميحاً كمثال لوقوع المعجزات فيما مضى. كما أنه يشير

للإسكندر والسلطان العثماني ، وإلى المماليك في مصر وغيرهم من القادة القدامى والقادة المعاصرين له. وهذا قد يجعل القارئ يبحث عما تحدث عنه مكيافيللي من أحداث تاريخية ، ومواقع حربية ومعارك ليقرأ عنها بالتفصيل فتكون هناك فائدة جديدة من وراء قراءة الكتاب.

كما أني رأيت ألا نخشى ترجمة كتاب لمكيافيللي لمجرد ما فيه من أفكار شريرة وقاسية وقد قرأنا من قبل كتباً مترجمة عن الماركسية والشيوعية وغيرها مما لا نؤمن به من أفكار تتعارض مع ديننا الإسلامي الحنيف، نقرأ عنها للاطلاع والمعرفة، وحتى نعي ما يحدث عندما تتسلل بعض مبادئها إلى شبابنا أو تدس له عن قصد. فليس جميع من بالمشرق والمغرب مؤمنين بضرورة الحوار الشريف مع الآخر، وليس جميع المثقفين في دول العالم المتقدم مستعدين لنقل ما يفيد للآخرين من أبناء الشعوب الأخرى في دول العالم الثالث، بل إن الكثيرين منهم مستعدين لنقل ما يضر من مبادئ وأخلاقيات عن قصد إلى أبناء هذا العالم الثالث المسكين حتى يظل في مرتبة تالية ولا يرقى إلى ما يعتبرونه حريا بهم هم فقط.

ومن أجل كل ذلك، استعنت بالله وشرعت في ترجمة هذا الكتاب الذي هو بين يديك الآن وكل ما أقصده هو العلم بما فيه وتناول موضوعاته مع عدم التعليق عليها كثيراً ، وذلك لأن ما فيها من خير واضح جداً وإن كان قليلا (مثل الحديث عن فنون القتال والتحصن من الأعداء)، وما فيه من شر هو أكثر وضوحاً.

وأنا لا أجد غضاضة في أن نقرأ ما جاء بالكتاب ، وإن ناقض بعض مبادئنا العربية السمحة الأصيلة، بل إن ذلك مفيد لنا لكي نعرف كيف كان ساسة الغرب يفكرون في تلك الفترة . وكيف تأثروا بهذه الأفكار حتى الآن.

وحتى نعرف أيضاً أن بعض هذه الأفكار قد انتقل إلى ثقافتنا العربية ، وطبقها بعض الحكام. كما يمكننا أن نقارن بين ما ينصح به مكيافيللي أميره المحبوب وبين ما يحدث في بعض أركان عالمنا اليوم. ولن يكون صعباً علينا أن نجد بعض الطغاة يعملون بما جاء به ، ويستفيدون منه في البطش بالضعفاء المسالمين وفي الاستيلاء على ممتلكات الآخرين سواء كانت أراضِىَ أو ممتلكات، بل وسنجد بصمات مكيافيللي أيضاً في طريقة قيام بعض الحروب العدوانية والإبادة الجماعية لبعض الطوائف وغيرها من أمثلة كثيرة.

وخلاصة القول هي أنني لم أقصد من وراء هذه الترجمة إلا المصلحة العامة، وأشهد الله على ذلك. فإذا وافقني القارئ على ذلك ، وشعر أنه قد استفاد مما قرأ، فإني أحمد الله على ذلك. ومن يرى غير ذلك فحسبي أنني اجتهدت ولم أقصد إلا الخير لقارئي اللغة العربية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

أكرم مؤمن